سورة الأحقاف

١ ـ **سميت هذه السورة (سورة الأحقاف)** في جميع المصاحف وكتب السنة، ووردت تسميتها بهذا الاسم في كلام عبدالله بن عباس.

روى أحمد بن حنبل بسند جيد عن ابن عباس قال: «أقرأني رسول الله سورة من آل حم وهي الأحقاف».

وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت ثلاثين.

وكذلك وردت تسميتها في كلام عبدالله بن مسعود أخرج الحاكم بسند صححه عن ابن مسعود قال: «أقرأني رسول الله سورة الأحقاف» الحديث.

وحديث ابن عباس السابق يقتضي أنها تسمى ثلاثين إلا أن ذلك لا يختص بها فلا يعد من أسمائها.

ولم يذكرها في الإتقان في عداد السور ذات أكثر من اسم.

ووجه تسميتها (الأحقاف) ورود لفظ الأحقاف فيها ولم يرد في غيرها من سور القرآن.

وهي مكية قال القرطبي: باتفاق جميعهم، وفي إطلاق كثير من المفسرين.
٢٦/٥

٢ ـ **وهذه السورة معدودة الخامسة والستين في عداد نزول السور**، نزلت بعد الجاثية وقبل الذاريات.

وعدت آيها عند جمهور أهل الأمصار أربعاً وثلاثين، وعدها أهل الكوفة خمساً وثلاثين والاختلاف في ذلك مبني على أن (حم) تعتبر آية مستقلة أَوْ لا.
٢٦/٦

٣ـ **أغراضها**: من الأغراض التي اشتملت عليها أنها افْتُتِحتْ مِثْلُ سورةِ الجاثية بما يشير إلى إعجاز القرآن للاستدلال على أنه مُنَزَّلٌ من عند الله.

والاستدلالُ بإتقانِ خلقِ السماوات والأرض على التفرد بالإلهية، وعلى إثباتِ جزاء الأعمال.

والإشارةُ إلى وقوع الجزاء بعد البعث، وأن هذا العالمَ صائرٌ إلى فناء، وإبطالُ الشركاءِ في الإلهية، والتدليلُ على خلوِّهم عن صفاتِ الإلهية، وإبطالُ أن يكون القرآن من صنع[1] غير الله.

وإثباتُ رسالةِ محمدٍ ﷺ واستشهادُ الله -تعالى- على صدق رسالته، واستشهادُ شاهدِ بني إسرائيل وهو عبد الله بن سلام.

والثناءُ على الذين آمنوا بالقرآن، وذكرُ بعضِ خصالهم الحميدة وما يضادها من خصال أهل الكفر وحسدِهم الذي بعثهم على تكذيبه.

وذكَرت معجزةَ إيمان الجن بالقرآن.

وخُتِمَت السورةُ بتثبيت الرسول ﷺ.

وأقحِمَ في ذلك معاملةُ الوالدين والذريةِ مما هو مِنْ خُلُقِ المؤمنين، وما هو من خُلقِ أهل الضلالة.

والعبرةُ بضلالهم مع ما كانوا عليه من القوة، وأن اللهَ أخذهم بكفرهم، وأهلك أمماً أخرى؛ فجعلهم عظةً للمكذبين، وأن جميعهم لم تُغْنِ عنهم أربابُهم المكذوبة.

وقد أشبهت كثيراً من أغراض سورة الجاثية مع تَفَنُّن. ٢٦/٦ـ٧

١ـ لو كانت العبارة: «وإبطال أن يكون القرآن من عند غير الله» لكانت أدقَّ وأصحَّ -كما هي عبارة المؤلف في كثير من المواضع السابقة واللاحقة-. (م)

سورة محمد

١ ـ سميت هذه السورة في كتب السنة (سورة محمد).

وكذلك ترجمت في صحيح البخاري من رواية أبي ذر عن البخاري، وكذلك في التفاسير قالوا: وتسمى (سورة القتال).

ووقع في أكثر روايات صحيح البخاري (سورة الذين كفروا).

والأشهر الأول، ووجهه أنها ذكر فيها اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها فعرفت به قبل سورة آل عمران التي فيها ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾.

وأما تسميتها (سورة القتال) فلأنها ذكرت فيها مشروعية القتال، ولأنها ذكر فيها لفظه في قوله ـتعالى ـ: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ مع ما سيأتي أن قوله ـتعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أن المعني بها هذه السورة فتكون تسميتها (سورة القتال) تسمية قرآنية.

وهي مدنية بالاتفاق حكاه ابن عطية وصاحب الإتقان.

وعن النسفي: أنها مكية.

وحكى القرطبي عن الثعلبي وعن الضحاك وابن جبير: «أنها مكية» ولعله وَهْمٌ ناشئٌ عما روي عن ابن عباس أن قوله ـتعالى ـ: ﴿وكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ الآية نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء، أي في الهجرة.

قيل نزلت هذه السورة بعد يوم بدر وقيل نزلت في غزوة أحد.

وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة

الحديد وقبل سورة الرعد.

وآيها عدت في أكثر الأمصار تسعاً وثلاثين، وعدها أهل البصرة أربعين، وأهل الكوفة تسعاً وثلاثين. ٧١/٢٦

٢ـ **أغراضها:** معظم ما في هذه السورةِ التحريضُ على قتال المشركين، وترغيبُ المسلمين في ثواب الجهاد.

افتتحت بما يثير حنقَ المؤمنين على المشركين؛ لأنهم كفروا بالله وصدوا عن سبيله، أي دينه.

وأعلم اللهُ المؤمنين بأنه لا يسدد المشركين في أعمالهم، وأنه مصلحُ المؤمنين؛ فكان ذلك كفالةً للمؤمنين بالنصر على أعدائهم.

وانْتُقِلَ من ذلك الى الأمر بقتالهم، وعدمِ الإبقاء عليهم.

وفيها وعدُ المجاهدين بالجنة، وأمرُ المسلمين بمجاهدة الكفار، وأن لا يَدْعُوهم إلى السلم، وإنذارُ المشركين بأن يصيبَهم ما أصاب الأممَ المكذبين مِنْ قبلهم.

ووصفُ الجنةِ ونعيمِها، ووصفُ جهنمَ وعذابِها.

ووصفُ المنافقين وحالِ اندهاشهم إذا نزلت سورة فيها الحضُّ على القتال، وقلةِ تَدبُّرِهِمُ القرآنَ وموالاتِهم المشركين.

وتهديدُ المنافقين بأن الله ينبي رسولهﷺ بسيماهم، وتحذيرُ المسلمين من أن يروجَ عليهم نفاقُ المنافقين.

وخُتِمَتِ بالإشارة إلى وعد المسلمين بنوال السلطان، وحذَّرهم إن صار إليهم الأمر من الفساد والقطيعة. ٧٢/٢٦

٣ـ ولهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم وأتبع

بقوله: ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾.

فتحصل مما تقرر أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه هو طلب المسألة من العدو في حال قدرة المسلمين، وخوف العدو منهم، فهو سَلْمٌ مُقَيَّدٌ بكون المسلمين داعين له وبكونه عن وهن في حال قوة.

قال قتادة: أي لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها.

فهذا لا ينافي السلم المأذون فيه بقوله: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ في سورة الأنفال؛ فإنه سَلْمٌ طلبه العدو؛ فليست هذه الآية ناسخة لآية الأنفال، ولا العكس، ولكل حالة خاصة، ومقيد بكون المسلمين في حالة قوة ومنعة وعِدَّة وعُدَّة بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدَّعَة.

فإذا كان للمسلمين مصلحةٌ في السَّلْم، أو كان أخف ضراً عليهم فلهم أن يبتدئوا إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إليه إذا دُعوا إليه.

وقد صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية؛ لمصلحة ظهرت فيما بعد، وصالح المسلمون في غزوهم أفريقية أهلها، وانكفأوا راجعين إلى مصر.

وقال عمر بن الخطاب في كلام له مع بعض أمراء الجيش: «فقد آثرت سلامة المسلمين».

وأما الصلح على بعض الأرض مع فتحها فذلك لا ينافي قوة الفاتحين كما صالح أمراء أبي بكر نصف أهل دمشق وكما صالح أمراء عمر أهل سود العراق وكانوا أعلم بما فيه صلاحهم. ١٣١/٢٦

سورة الفتح

١ـ سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ﴾ سميت في كلام الصحابة (سورة الفتح).

ووقع في صحيح البخاري عن عبدالله بن مغفل (بغين معجمة مفتوحة وفاء مشددة مفتوحة) قال: قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة (سورة الفتح) فرجَّع فيها.

وفيها حديث سهل بن حنيف: «لقد رأيتُنا يوم الحديبية ولو ترى قتالاً لقاتلنا».

ثم حكى مقالة عمر إلى أن قال: «فنزلت سورة الفتح ولا يعرف لها اسم آخر».

ووجه التسمية أنها تضمنت حكاية فتح متجه الله للنبي ﷺ ـكما سيأتيـ.

وهي مدنية على المصطلح المشهور في أن المدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة من أرضها أو من غيرها.

وهذه السورة نزلت بموضع يقال له كُراع الغَمِيم ـبضم الكاف من كراع وبفتح الغين المعجمة وكسر الميم من الغميمـ موضع بين مكة والمدينة، وهو واد على مرحلتين من مكة وعلى ثلاثة أميال من عُسفان وهو من أرض مكة.

وقيل نزلت بضَجْنان ـبوزن سكرانـ وهو جبل قرب مكة، ونزلت ليلاً؛ فهي من القرآن الليلي.

ونزولها سنة ست بعد الهجرة مُنصرَف النبي ﷺ من الحديبية وقبل غزوة خيبر.

وفي الموطأ عن عمر: «أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره ـأي منصرفه من الحديبيةـ ليلاً وعمر بن الخطاب يسير معه، فسأله عمر بن الخطاب

عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال: عمر ثكلت أم عمر نزرتَ رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لا يجيبك.

قال عمر: فحركت بعيري، وتقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيّ القرآن، فما نَشِبْت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجئت رسول الله، فسلمت عليه فقال: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾».

ومعنى قوله: «**لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس**» لما اشتملت عليه من قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾.

وأخرج مسلم والترمذي عن أنس قال: «أنزل على النبي: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزاً عَظِيماً﴾ مرجعه من الحديبية فقال النبي ﷺ: **لقد أنزلت علي آية أحب إليَّ مما على وجه الأرض**» ثم قرأها.

وهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب نزول السور في قول جابر ابن زيد.

نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة.

وعدة آيها تسع وعشرون.

وسبب نزولها ما رواه الواحدي وابن إسحاق عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم قالا: «نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية وقد حيل بيننا وبين نُسْكنا؛ فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾ فقال رسول الله: «**لقد أنزلت عليَّ آية أحب إليَّ من الدنيا وما فيها**» وفي

رواية: «من أولها إلى آخرها». ٢٦/١٤١-١٤٢

٢- **أغراضُها:** تَضَمَّنَتْ هذه السورةُ بشارةَ المؤمنين بِحُسْنِ عاقبة صُلْحِ الحديبية، وأنه نصرٌ وفتحٌ؛ فنزلت به السكينةُ في قلوب المسلمين، وأزال حُزْنَهم مِنْ صدِّهم عن الاعتمار بالبيت، وكان المسلمون عُدَّةً لا تغلب من قلة؛ فرأوا أنهم عادوا كالخائبين؛ فأعلمهم الله بأن العاقبة لهم، وأن دائرةَ السَّوءِ على المشركين والمنافقين.

والتنويهُ بكرامة النبي ﷺ عند ربه، ووعدُه بنصر متعاقب.

والثناءُ على المؤمنين الذين عَزَّروه وبايعوه، وأن اللهَ قَدَّمَ مَثَلَهُمْ في التوراة وفي الإنجيل.

ثم ذِكْرُ بيعةِ الحديبية، والتنويهِ بشأن مَنْ حضرها.

وَفضْحُ الذين تخلفوا عنها من الأعراب ولَمْزُهُمْ بالجبن والطمع وسُوءِ الظن بالله وبالكذب على رسول الله ﷺ ومَنْعُهُمّ من المشاركة في غزوة خيبر، وإنباؤهم بأنهم سَيُدْعون إلى جهاد آخر، فإن استجابوا غُفِرَ لهم تَخَلُّفُهم عن الحديبية.

وَوَعْدُ النبيِّ ﷺ بفتحٍ آخرَ يَعقبه فتحٌ أعظمَ منه وبفتحِ مكةَ، وفيها ذكرٌ بفتحٍ مِنْ خيبر كما سيأتي في قوله -تعالى- ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾. ٢٦/١٤٢-١٤٣

٣- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾.

وقد تكلموا في تسمية ما حل بهم يومئذ فتحاً كما علمت مما تقدم فلما بين لهم الرسول ﷺ ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك؛ فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقُوا كاسفي البال، شديدي البلبال؛ فذلك الاطمئنان هو الذي سماه الله بالسكينة، وسمّي إحداثه في

نفوسهم إنزالاً للسكينة في قلوبهم، فكان النصر مشتملاً على أشياء من أهمها إنزالُ السكينةِ، وكان إنزالُ السكينةِ بالنسبة إلى هذا النصر نظيرَ التأليف بين قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وما كان بينهما من الأمن في الجاهلية بالنسبة للنصر الذي في قوله -تعالى-: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وإنزالها: إيقاعها في العقل والنفس، وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة.

وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال؛ تشريفاً لذلك الوَجَدَان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس، فألقي إلى قلوب الناس، وتلك رفعة تخييلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخييلية.

ولما كان من عواقب تلك السكينة أنها كانت سبباً لزوال ما يلقيه الشيطان في نفوسهم من التأويل لوعد الله إياهم بالنصر على غير ظاهره، وحمله على النصر المعنوي لاستبعادهم أن يكون ذلك فتحاً، فلما أنزل الله عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم، فزال ما خامرها وأيقنوا أنه وعد الله وأنه واقع؛ فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم، فيلتحق بالمنافقين الظانين بالله ظن السوء؛ فإن زيادة الأدلة تؤثر رسوخ المستَدلّ عليه في العقل، وقوة التصديق. ٢٦/١٤٩-١٥٠

٤- **والحسد**: كراهية أن ينال غيرك خيراً معيَّناً أو مطلقاً سواء كان مع تمني انتقاله إليك أو بدون ذلك، فالحسد هنا أريد به الحرص على الانفراد بالمغانم وكراهية المشاركة فيها لئلا ينقص سهام الكارهين. ٢٦/١٦٩

٥- و﴿أَشِدَّاءُ﴾: جمع شديد، وهو الموصوف بالشدة المعنوية وهي صلابة المعاملة وقساوتها، قال -تعالى- في وصف النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾.

والشدة على الكفار: هي الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصف مدح؛ لأن المؤمنين الذين مع النبي ﷺ كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام؛ فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وأصحاب النبي ﷺ أقوى المؤمنين إيماناً من أجل إشراق أنوار النبوة على قلوبهم؛ فلا جرم أن يكونوا أشد على الكفار؛ فإن بين نفوس الفريقين تمامَ المضادة، وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية وعفا عنهم النبي ﷺ إلا من آثار شدتهم على الكفار، ولم تكن لاحت لهم المصلحةُ الراجحةُ على القتال وعلى القتل التي آثرها النبي ﷺ.

ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدائهم على الكفار وهو عمر بن الخطاب، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخاها النبي ﷺ في إبرام الصلح أبا بكر.

وقد قال سهل بن حنيف يوم صفين: أيها الناس اتهموا الرأي؛ فلقد رأيتنا يوم أبي جندل، ولو نستطيع أن نرد على رسول الله فعله لرددناه، والله ورسوله أعلم.

ثم تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال ولعلماء الإسلام فيها مقال، وقد تقدم كثير من ذلك في سورة آل عمران وفي سورة براءة.

والشدة على الكفار اقتبسوها من شدة النبي ﷺ في إقامة الدين قال -تعالى-: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

وأما كونهم رحماء بينهم فذلك من رسوخ أخوة الإيمان بينهم في نفوسهم.

وقد وردت أخبار أخوتهم وتراحمهم في مواضع كثيرة من القرآن وكلام الرسول ﷺ.

وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدة والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم، وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجِبِلَّة وعدم الرؤية[1]. ٢٦/٢٠٤ـ٢٠٥

---

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: الرَّوِيَّة. (م)

سورة الحجرات

١ـ سميت في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير (سورة الحجرات) وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها أنها ذكر فيها لفظ ﴿ الْحُجُرَاتِ ﴾.

ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله ﷺ من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة.

وهي مدنية باتفاق أهل التأويل، أي مما نزل بعد الهجرة، وحكى السيوطي في الإتقان قولاً شاذاً أنها مكية ولا يعرف قائل هذا القول.

وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله ـتعالىـ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ الآية نزلت بمكة في يوم فتح مكة كما سيأتي، ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة ـكما سيأتيـ.

ولم يعدها في الإتقان في عداد السور المستثنى بعض آياتها.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزول هذه السورة سنة تسع، وأول آيها في شأن وفد بني تميم كما سيأتي عند قوله ـتعالىـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

وعد جميع العادين آيها ثمان عشرة آية. ٢١٣/٢٦

٢ـ أغراض هاته السورة: تتعلق أغراضُها بحوادثَ جدَّت متقاربةٍ كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب.

وأولها تعليمُ المسلمين بعضَ ما يجب عليهم من الأدب مع النبيﷺ في معاملتِهِ، وخطابِه وندائِه، دعا إلى تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسولﷺ من بيوته كما سيأتي عند قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

ووجوبُ صدقِ المسلمين فيما يخبرون به، والتثبتُ في نقل الخبر مطلقاً، وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبةِ أخلاق الكافرين والفاسقين، وتَطَرُّقٌ إلى ما يحدث من التقاتل بين المسلمين، والإصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية، وتَخَلُّصٌ من ذلك إلى التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب؛ تقويماً لأود نفوسهم. ٢٦/٢١٣ـ٢١٤

٣ـ **علم أن قوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾** لا ينافي أن تكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى مما شأنه أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والعرافة[١] في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم وفي الفصائل، وفي العائلات، وكذلك بحسب ما خلده التاريخ الصادق للأمم والأفراد مما يترك آثاراً لأفرادها وخلالاً في سلائلها قال النبيﷺ: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب: العراقة. (م)

فإن في خلق الأنباء[1] آثاراً من طباع الآباء الأدنَيْن أو الأعَلْين تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده، وأن للتهذيب والتربية آثاراً جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة.

وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى. ٢٦/٢٦٢ـ٢٦٣

١ ـ هكذا في الأصل، ولعل الصواب، الأبناء. (م)

سورة ق

١ـ سميت في عصر الصحابة (سورة ق) (يُنطق بحروف (قاف) بقاف، وألف، وفاء).

فقد روى مسلم عن قطبة بن مالك أن النبيﷺ قرأ في صلاة الصبح سورة ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

وربما قال: ﴿ق﴾ (ويعني في الركعة الأولى).

وروى مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان: «ما أخذتُ ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم على المنبر إذ خطب الناس».

وروى مسلم عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ(قاف والقرآن المجيد).

هكذا رُسم قاف ثلاث أحرف، وقوله (في الفجر) يعني به صلاة الصبح؛ لأنها التي يصليها في المسجد في الجماعة، فأما نافلة الفجر فكان يصليها في بيته.

وفي الموطأ ومسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ(قاف).

هكذا رسم قاف ثلاثة أحرف مثل ما رسم حديث جابر بن سمرة و﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيْدِ﴾ و﴿اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وهي من السور التي سميت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها مثل (طه) و(ص) و(ق) و(يس) لانفراد كل سورة منها بعدد الحروف الواقعة في أوائلها بحيث إذا دُعيت بها لا تلتبس بسورة أخرى.

وفي الإتقان أنها تسمى سورة (الباسقات) هكذا بلام التعريف، ولم يعزه لقائل والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف، أي سورة النخل الباسقات إشارة إلى قوله: ﴿ النَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾.

وهذه السورة مكية كلها قال ابن عطية: بإجماع من المتأولين.

وفي تفسير القرطبي والإتقان عن ابن عباس وقتادة والضحاك: استثناء آية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أنها نزلت في اليهود، يعني في الرد عليهم إذ قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت، يعني أن مقالة اليهود سُمعت بالمدينة، يعني: وألحقت بهذه السورة؛ لمناسبة موقعها.

وهذا المعنى وإن كان معنى دقيقاً في الآية فليس بالذي يقتضي أن يكون نزول الآية في المدينة؛ فإن الله علم ذلك فأوحى به إلى رسولهﷺ على أن بعض آراء اليهود كان مما يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام يتلقونه تلقي القصص والأخبار.

وكانوا بعد البعثة يسألون اليهود عن أمر النبوة والأنبياء، على أن إرادةَ اللهِ إبطالَ أوهام اليهود لا تقتضي أن يؤخر إبطالَها إلى سماعها، بل قد يجيء ما يبطلها قبل فشوها في الناس كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ فإنها نزلت بمكة.

وورد أن النبيﷺ أتاه بعض أحبار اليهود فقال: إن الله يضع السماوات على أصبع والأرضين على إصبع والبحار على أصبع والجبال على إصبع ثم يقول «أنا الملك أين ملوك الأرض» فتلا النبيﷺ الآية.

والمقصود من تلاوتها هو قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.

والإيماء إلى سوء فهم اليهود صفات الله.

وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد.

وقد أجمع العادون على عد آيها خمساً وأربعين. ٢٦/٢٧٣_٢٧٤

٢ـ أغراض هاته السورة:

أولها: التنويهُ بشأن القرآن.

ثانيها: أنهم كذبوا الرسولَ ﷺ لأنه من البشر.

وثالثها: الاستدلالُ على إثبات البعث، وأنه ليس بأعظم من ابتداء خلق السماوات وما فيها وخلقِ الأرض وما عليها، ونشأة النباتِ والثمار من ماء السماء، وأن ذلك مثلٌ للإحياء بعد الموت.

الرابع: تنظيرُ المشركين في تكذيبهم بالرسالة والبعث ببعض الأمم الخالية المعلومة لديهم، ووعيدُ هؤلاء أن يَحِلَّ بهم ما حل بأولئك.

الخامس: الوعيدُ بعذابِ الآخرة ابتداءً من وقت احتضارِ الواحد، وذِكْرُ هولِ يوم الحساب.

السادس: وَعْدُ المؤمنين بنعيم الآخرة.

السابع: تسليةُ النبي ﷺ على تكذيبهم إياه، وأَمْرُه بالإقبال على طاعة ربه، وإرجاءُ أمرِ المكذبين إلى يوم القيامة، وأن اللهَ لو شاء لأَخَذَهم من الآن، ولكنَّ حكمةَ اللهِ قَضَت بإرجائهم، وأن النبيَّ ﷺ لم يكلَّف بأن يُكْرِهَهُم على الإسلام، وإنما أُمِرَ بالتذكير بالقرآن.

الثامن: الثناءُ على المؤمنين بالبعث بأنهم الذين يتذكرون بالقرآن.

التاسع: إحاطةُ علمِ اللهِ ـتعالىـ بخفيات الأشياء، وخواطر النفوس. ٢٦/٢٧٥